الصورة البصرية في رحلة البحث عن الحقيقة:

قراءة في ومضة (خُطوةٌ..خُطوةٌ) لعصام الشريف

محمود عبد الرحيم الرجبي، الأردن

خُطوةٌ..خُطوةٌ

أحاصرُ السرابَ بعيدًا عن واحتي :"أنتَ وهمٌ، حسنًا ..لتظلّ كذلكَ"، ثم أخطو خطوة مع مسير الضوء !!

عرايا نحن أمام أنفسنا، نحاول ستر حقيقتها دائما بالوهم والأكاذيب التي يمكن تصديقها، لأننا لا نقدر على الوقوف امام مرايا أرواحنا، خوفا من أطياف الماضي التي تسكن الذكريات وتنظر إلينا ساخرة!!

هذه الومضة القصصية المعنونة (خُطوةٌ..خُطوةٌ[3]) ليست أكثر من حياة كلِّ واحد فينا، إنها الحياى السرية فينا، إنها الجزء المظلم منا، إنها رحلة الحياة التي نعيشها حائرين بحثا عن حقيقتنا، التي لو حدقنا جيدا، فسنراها أمامنا ساخرة منا ضاحكة!!

إنها رحلة داخلية في داخل الكاتب وذاته الغامضة، إنها قفزة زمنية بين ألم الحاضر وضياع الماضي والخوف من المستقبل، إنها رحلة وجودية

[3] عصام الشريف. أطياف ومرايا. الكتاب الرابع في سلسلة ومضات قصصية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، مايو 2015. ص 11.

obeikandi.com

مدهشة، يأخذنا الكاتب فيها دون أن نحرك ساكناً فينا سوى أحزاننا وذكرياتنا عن كلِّ شيء كان يحتلّ أصغر اللحظات في حياتنا!!

يبدأ الكاتب رحلته المؤلمة في الدخول إلى نفسه المتعبة الحائرة، بأن يركب أجنحة كلّ ما يؤمن به من حقائق كاذبة، يسافر بعقله وفكره عبر كلّ المحطات المظلمة، في حقول الذاكرة المليئة بكل أنواع الذكريات، يتوقف عند كلّ المحطات في حياته، فيكتشف أنه يؤمن بما يرى من الحقيقة فقط، مع أن الحقيقة ترتدي كلّ يوم وجها جديدا لنا، لأن الحقيقة لن نتحملها إذا ظهرت عارية، ولكنه يريد أن يؤمن ويفترض ما يريحه، ولكنه يكتشف أن الحقيقة التي لديه ليست كاملة، فنصف الحقيقة أو الحقيقة الناقصة ليست أكثر من كذبة بارعة تختلف عن أية كذبة بأنها يمكن تصديقها، يكمل رحلته عبر ممرات وأنفاق الرفض والتردد والحيرة القاتلة، يكتشف انه يتلذذ بالأوهام الثى يزرعها ويقطفها ويعصرها بيديه، ويؤمن بطعمها مع أنها بلا طعم ولا لون ولا رائحة، يكمل رحلته باتجاه قلبه وأحاسيسه الكامنة، فيكتشف أن البصيرة فيه مغلقة العينين تائهة، فيكسر أقفالها، وفجأة ينبعث من داخله صوت عميق يأتي من مكان عميق يقول: (أخيراَ أتيت، تقدم تقدم!!).. فجأة يصبح بعينين جديدتين، فيرى الأشياء التي لم يرها من قبل، أو كان يتظاهر بعدم رؤيتها، يري كلّ شيء على حقيقته الواضحة، فيكتشف انه كان يحيا في سراب واحة خادعة في صحراء الحياة الشاسعة، يجرب فيها كلّ شيء،

ويأخذ منها كلّ شيء، دون أن ينتبه إلى أنه في الحقيقة لم يأخذ منها شيئا واحداَ سوى أوهامه الخادعة، فيبدأ رحلته باتجاه النور وباتجاه الحقيقة الخالدة، في رحلة اكتشاف النفس ومعرفة الذات في رحلة الايمان المدهشة!!

لقد درج الباحثون على تصنيف الكتابة وفق رؤى وتصنيفات متعددة، فقد صنفت في ضوء الأداء والصياغة الكتابية إلى نوعين هما: الكتابة الوظيفية، والكتابة الإبداعية، كما صنفت في ضوء الغرض منها إلى:

كتابة تعبيرية Expressive Writing (تعبير الكاتب عن خبرته الشخصية وآرائه) .

كتابة إقناعيه Persuasive Writing .

كتابة وصفية Descriptive Writing .

كتابة تفسيرية (توضيحية) Expository Writing (التي تشرح وتعطي أمثلة).

كتابة حجاجيه Argumentative Writing (التعبير عن الرأي، أو الادعاء، وإبراز المغالطات).

والأغراض السابقة للكتابة يمكن أن تُصبَّ إما في قالب وظيفي أو في قالب إبداعي، وفق الأداء الكتابي للكاتب، ووفق طبيعة القارىء الذي سيقرأ هذه الكتابة.

إن الكاتب يمارس عبر هذه الومضة القصصية بطريقة مدهشة كلّ هذه الأغراض دفعة واحدة وفي تكثيف شديد، في صياغة إبداعية واضحة تماما، يعتمد فيها أسلوب المدرسة الرمزية في الادب، وعبر استخدام الصورة البصرية التي تُعتبر أهم خاصية من خصائص المدرسة الرمزية في الأدب.

يقول الكاتب حكمت مهدي جبار في مقلة له بعنوان: (العنصر الصوري (التخيلي) في الإبداع الادبي و الفني):

(إن العنصر الصوري التخيلي من أهم العناصر التي تميز العبارة الفنية في التعبير الادبي والفني التشكيلي والروائي، وإن المسوغ الفني لعنصر الصورة هو تقريب، لكي يدرك المتلقي/ المشاهد/ القارئ/ النص المطروح. وفي اللغة يظهر (المجاز) كإطار عام لكل اشكال العنصر الصوري باعتباره فنا قائما على التخيل الذي يقوم بإيجاد علاقات غير حقيقية بين الأشياء يسمى (مجازا) وهو تصوير مفترض غير موجود في الواقع انما يوجده الفنان والكاتب والشاعر كوسائل لتقريب الصورة إلى المتلقي ذلك لأن كل الفنون والآداب هي مجازية. إن العنصر الصوري في الفن والأدب والرسم والشعر والقصة والسينما والمسرح والرواية هو أحد العناصر (البلاغية) سواء في النص البصري أو المقروء. ويبرز ذلك من خلال أشكال أو أقسام (الصورة) المجازية كالتشبيه والاستعارة والتمثيل والترميز والاستدلال والتضمين والتورية والافتراض والمبالغة والإحالة

فتلك الأشكال رغم استخداماتها اللغوية في الابداع الفني الأدبي فهي تلتقي مع الفنون الجميلة الاخرى التشكيلية والمسرحية والموسيقية وحتى السينمائية.)

يقول هوراس الشاعر اللاتيني المشهور :(إن الشعر هو التصوير). و يقول (انطوان كوبيل) أستاذ الفن في الأكاديمية الملكية بأن :على الرسام في أسلوبه الراقي أن يكون شاعرا، لا أقول عليه ان يكتب الشعر، إذ ربما يفعل ذلك من غير أن يكون شاعرا، وعلى الرسم أن يفعل بالعين ما يفعله الشعر بالأذن. ويقول بيكاسو: إن الرسم هو الشعر وهو دائما يكتب على شكل قصيدة ذات قافية تشكيلية).

إن الصورة البصرية في هذه الومضة القصصية تتركز في تشخيص المشكلة أو الشك أو اليأس وتحجيمه من أجل مقاومته، لأنه لا يمكن أن تنتصرعلى عدو تشعر به ولا تراه بعيني, دون أن تغير في نفسك أولا، وهذا يكون في المعرفة والاكتشاف، ثم بالإيمان واتخاذ الخطوة الأولى في التنفيذ، إنها عملية تحول داخلي كاملة، تبدأ بعودة الوعي وتحديد معالم الوهم تماماً، ثم حصاره في محاولة لإزالته من جذور النفس وإلغاء أيّ تأثير له، يختفي بين ثنايا الروح التي تصنع إرادة التغيير فينا، ولكنه في نفس الوقت حصار بطئ وطويل، لأن النفس لا تقبل التغيير بسهولة، فالتغيير هو انقلاب كامل إلى الاتجاه الاخر، إلي الحقيقة من الوهم، بعد معرفةٍ ورحلةٍ داخليةٍ في

الذات، وهذا يتطلب وقتاً طويلا، مما يفسر عنوان الومضة القصصية (خطوة...خطوة) أي بمعنى آخر، كي تضمن النجاة عليك أن تغير ما في داخلك ولكن ببطء، وببطء شديد !!.

تبدأ الصورة البصرية في القصة من البداية: (أحاصر السراب بعيداً عن واحتي: "أنت وهم، حسناً، لتظل كذلك")، فهو يستخدم بطريقة رائعة جداً الحوار الداخلي في القصة (monologue)، والحوار الداخلي هو كلّ ما يجري داخل الشخصية أو أفكارها ومخاوفها الخاصة، فالكاتب هنا يستخدم ببراعة واضحة الاستعارة المكنية الدالة على التجسيد لذاته الحقيقية، فهو يجسد ما في داخله في قوله: (السراب) و(الواحة) مع ما فيهما من ارتباط وثيق وتناقض عميق في نفس الوقت، فالوهم مريح وهو واحة الجاهلين العاجزين عديمي الإرادة، والحقيقة دنيا كاملة من التعب، ثم يأتي التشخيص باستخدام أسلوب الحوار الداخلي عن طريق الاستعارة التصريحية في قوله: (أنت وهم)، إنه نص يفوح برائحة السريالية والتجريد المتقنة، في صورة رمزية تتطلب ثقافة واعية للغوص فيما يختفي ما وراء النص وما بين السطور الملغمة.

إنها صورة بصرية رائعة، تلعب بين مفهوم المحسوس واللا محسوس، بين المعلوم والمجهول، بين الوهم والحقيقة، أنها أكثر من صورة في صورة واحدة، فهو يتنقل بين المشهد البصري إلى المشهد السمعي، بكلّ سهولة،

فمن مشهد سراب الواحة في الصحراء الذي تراه العين وتكذبه عين البصيرة، إلى المشهد السمعي الذي يؤكد له على وهمية المشهد بقوله وتأكيده على أن حياته الحالية، بكلّ ما تقوم عليه، ليست أكثر من وهم كالسراب تماماً، إن محاصرة السراب في داخله بعيداً عن حياة الواحة المحيطة به، والتي يحيا فيها، مع مقارنة ذلك بالخطاب الداخلي في تأكيد كونه وهم بكل ما يمثله من واقع ملموس، تنتقل الاستعارة المكنية إلى استعارة تصريحية، يُصرِّح فيها عن حقيقته الكاملة، فالسراب أيضا استعارة تصريحية عن الجهل الذي يلد الوهم، والوهم استعارة عن كلّ ما يمثله المحيط (الواحة) في داخله، ثم تأتي جملة (لتظل كذلك) لتربط هذين المشهدين بالبعد الزمني (الأبد) مما يحوله إلى مجاز مرسل كونه له علاقة بالزمن أو كونه جزءاً من الزمن الذي لن ينتهي، إن لم يبدأ الخطوة الأولى والبطيئة في الثورة الداخلية، التي ستقلب كلّ شيء باتجاه انتصار الحقيقة على كل أوهامه الحاضرة، فهو قد وصل إلى نقطة الفصل في معرفة النفس، وحدد كلّ ما يريد الآن من ذاته، وعلية أن يتغير فقط، ولكنْ ببطء شديد، كي يضمن نجاح التجربة وعدم الفشل بسبب السرعة، فالوهم ما زال قويا، قد يكون مات في داخله ولكنه يحيا في كلّ ما يحيط به، وهو يريد أن يتغير كي يغير كلّ ما حوله، فهذه هي الغاية الأساسية من التغيير، لذا فهو ينهي قصته الومضة بالتأكيد على هذه النقطة بالذات: (ثم أخطو خطوة خطوة مع مسير الضوء!!)

فالرمز يوحي بالحالة ولا يصرح بها، ويثير الصورة ثم يتركها تكتمل من تلقاء ذاتها، تماما كما تتسع الدوائر في الماء، أو تماماً مثل تأثير الفراشة، وكلّ ذلك بالاعتماد على الفعالية الذهنية للقارئ، بحيث يصبح القارئ مشاركا تماماً في العملية الإبداعية مع الكاتب وحسب حالته النفسية وثقافته الذاتية عند ابحاره في بحر النص!!

في النهاية أقول: إنها قصة ومضه رمزية بامتياز تام، فهي موغلة في الرمزية، وتفتح نوافذ التشبيه والتفسير والاسقاط على الأشياء كاملة، فالرمزية ترمي الى الايحاء والتلميح، ومن أهم خصائصها التي احتوى عليها نص الومضة القصصية: هي الوحدة العضوية للبناء الفني في القصة، فهي مترابطة تماماَ في سوار واحد هو معني الوهم والحقيقة فقط، ولعل هذه الرمزية الرائعة في هذه الومضة القصصية ما يفسر الايقاع الداخلي والموسيقا الداخلية للكلمات مع أنه نص نثري بامتياز، ولكن الإيقاع أضاف إلى النص بعداً شاعريا واضحًا، زاد من عمقه وتأثيره على القارئ، الحوار الداخلي المستخدم والصورة البصرية والشعرية والاستعارات والتشبيه الضمني البليغ في النص، فالصورة هي أساس الايقاع الداخلي، والرمزية هي الحرية في حد ذاتها وقيدها الوحيد هو القارئ فقط!!